

الفكر البشري القديم الأستاذ أنور الجندي

المؤامرة الخطيرة التي تواجه الفكر الإسلامي في العصر الحديث، هي محاولة قوى التغريب (الاستشراق والتبشير) إعادة طرح الفكر البشري القديم الوثني والإباحي مرة أخرى، لتزييف هذا الفكر الرباني وتمييعه واحتوائه. ولقد كان الفكر الإسلامي دائماً متفتحاً لثمرات الفكر الإنساني، ولكنه كان قادراً حتى في أشد مراحل الضعف والتخلف على المحافظة على ذاتيته، والحيولة دون انصهاره في الفكر الأممي، ذلك لأن مقوماته الأصلية وقيامه أساساً على التوحيد، حال دائماً دون هذا الانصهار وهذا الاحتواء الذي فرضه الغزو الخارجي عليه.

بين جولتين:

وقد كان الفكر الإسلامي في الجولة الأولى (إبان ترجمة علوم اليونان والفارس والهنود) في نهاية القرن الأول وبدلية القرن الثاني وحتى الثالث، قادراً على أن يتوقف دون ترجمة الفلسفة والقانون والشعر أول الأمر، ثم لما ترجمت الفلسفات واجهها علماء المسلمين في قوة، وكشفوا أن منهجها لا يتفق مع منهج التوحيد.

أما في الجولة الثانية (هذا العصر) فقد استطاع النفوذ الأجنبي أن يفرض ترجمات كل ركام الفكر البشري ووثنياته وإباحتها، فمن أساطير وشعر وفلسفات مادية، دون أن يكون هناك حائل لذلك، وأن تمكن أعلام حركة اليقظة الإسلامية من كشف زيف هذا الركام البشري. ولقد كان هدف دعاة الغزو الفكري من هذه الخطة إعادة الفكر إلى الإيمان بالجبر، وعودة الإنسان إلى الوثنية، والدعوة الملحة إلى الانطلاق من القيم والتحرر من الأخلاق إلى حيوانية الطعام والجنس. أخطر ما طرح في أفق الإسلام:

ولعل أخطر ما طرح في الفكر البشري في أفق الإسلام في العصر الحديث:

- 1- النظريات المادية الماركسية.
 - 2- الأخطار الفلسفية والوجودية.
 - 3- الكشوف الأنتروبولوجية التي دعت إلى استغلال الأسطورة في تفسير الحياة الإنسانية.
 - 4- المذاهب الفلسفية التي ردت الإنسان إلى الحيوانية.
 - 5- نظرية دارون.
 - 6- مقارنات الأديان التي تقوم على أكذوبة أن البشرية كانت وثنية ثم اعتنقت التوحيد مع ظهور اليهودية.
- ولقد دعا الإسلام معتنقيه إلى اليقظة تجاه الفكر الوافد وحرر أتباعه من التأثير الأجنبي بكل أنواعه، ودعا إلى الحرص إزاء محاولة إدعاء الإسلام تغيير المعالم الأصلية للعقيدة الإسلامية وللفكر والثقافة ومحاولة تزييف مزاج المسلمين النفسي.
- 7- وكان أعداء الإسلام يعلمون أن الطريق الوحيد إلى القضاء على "وحدة الفكر الإسلامي" هو ضرب الأمة من خلال قوائم فكرها بإثارة الشبهات وإدخال مفاهيم وتفسيرات غريبة تختلف عن التفسيرات الأصلية.

وميزة الفكر الإسلامي:
كذلك كان من أكبر ميزات الفكر الإسلامي، هي قدرته الواضحة على التماس المنابع حين يفتقد النص القرآني أو التوجيه النبوي، فهو حين يتفتح على الثقافات العالية يأخذ منها بحذر ولا يأخذ كل شيء، ويرد الباقي من السيل المتدفق الذي يقدم إليه، فهو لا يأخذ إلا ما يتفق مع الأساليب والوسائل لا الأصول، وما يتفق مع طابعه وما يزيد قوة وكل ما يأخذه يصهره في بوتقته صهراً تاماً ويحيله إلى طابعه.
ولقد كان الفكر الإسلامي ولا يزال - وسيظل - قادراً على أن يعمل داخل الإطار الذي رسمه القرآن وحدده وأن يحكم المسلمون على كل ما يواجههم في ضوء القرآن والسنة لا يتعداهما إلى مصدر آخر.
وفي هذا المجال فرق الفكر الإسلامي بين المعرفة والثقافة، فالمعرفة عامة والثقافة خاصة، ولكل أمة ثقافتها المستمدة من عقيدتها وشريعتها وأخلاقها كذلك فرق بين العارض والأساسي، وبين للمعارف الجوهرية والمعارف غير الجوهرية، ودعا إلى وحدة الفكر في قطاعاته المختلفة فلا سبيل لفهم قطاع من الفكر الإسلامي وحده منفصلاً عن قطاعاته الأخرى.

كما فرق بين مقاييس العلوم التجريبية، ومقاييس الدراسات الإنسانية التي لا يمكن أن تخضع لأساليب العلوم التجريبية والمادية، لأنها تتصل بالنفوس والأخلاق، كما رفض الفكر الإسلامي مبدأ التقليد الأعمى ومبدأ التبعية وأقر مبدأ الأصالة والتماس المنابع.
تكامل أبعاد الفكر الإسلامي:

وقد قام الفكر الإسلامي في تكامله على أبعاد ثلاثة:
أولاً: عمق زمني: يربط الإنسان بالتاريخ والزمن والواقع وقضايا الحياة.
ثانياً: اتساع مكاني: يربطه بالأحداث العالمية في العالم المحيط به "وهذا هو الشطر الذي يعتبره الفكر الغربي الحديث أساساً وحيداً للفكر" أما الإسلام فإنه يعترف بعلاقة البيئة ولكنه لا يراها العلاقة الوحيدة.

ثالثاً: تكامل موضعي بمعنى وضع الجزء في مكانه من النظرة الكلية الجامعة.

وقد عارض الفكر الإسلامي: "الجمود" الذي يزرى بقيمة العقل ويحط من كرامة الإنسان.
وعارض التعصب: الذي يمنع الإنسان من تقيب وجهات النظر المختلفة.
كما عارض التقليد: الذي يجعل الإنسان تابعاً للتقديم أو الوافد دون فحص أو تمحيص.

ثم إن الفكر الإسلامي يعارض كل ما يصادم قوانين الكون ونواميس الوجود والحياة ويرى أن كل شيء يبدأ من نقطة ثابتة وينتهي إليها (حركة في إطار الثبات) وأن كل شيء يبدأ صغيراً ثم ينمو حتى يكتمل ثم يعود مرة أخرى (كالطفل والقمر).

وقد رفض الفكر الإسلامي المنطق اليوناني الذي يقوم على القياس والاستدلال النظري وأقام منطقاً جديداً مستمداً من خصائصه وهو المنهج الحسي التجريبي، وأعلن أن القياس المنطقي ليس كافياً وحده في إقامة النظريات خاصة التي تعارضت مع واقع التاريخ، وإن

الاستشهاد بوقائع غامضة من التاريخ – كما فعلت نظرية ماركس المادية – هو أيضاً زيف.

بين الفكر واللغة:

وأسوأ أنواع القياس: القياس الفاسد لا تؤيده حقيقة علمية وكشف الفكر الإسلامي عمق الارتباط بين الفكر واللغة وأن "منهج البحث" لأي فكر هو ما يطلق عيله لأنينا اسمن "الأورجانون" يستند أساساً إلى خصائص اللغة ولذلك فإن منهج المعرفة الإسلامي لا يمكن أن يستند إلى خصائص لغة غير اللغة العربية، ذلك لأن لكل لغة منهجها القائم على معانيها ومضامينها، وقد هاجم المسلمون المنهج الأسرطقي، وكشفوا عن أنه قائم على خصائص اللغة اليونانية التي تخالف اللغة العربية، ولذلك فهم لا يقبلون به.

كذلك الأمر بالنسبة إلى المنهج الغربي الوافد ذلك أن الفكر الإسلامي لا يستطيع أن ينطلق إلا من خلال منهج البحث الخاص به المستمد من اللغة العربية أولاً.

كما أعلن عن أن كل نظرية أو مذهب قامت أو قام في مجتمع ما، إنما أقامها أهلها على مقياس مجتمعهم. وفي ظل تحدياته الواقعية والتاريخية معاً. فهي ليست سوى استجابة ظرف وبيئة. وكذلك فهي سرعان ما تتحول مع مرور الزمن إلى أداة عاجزة عن تحقيق الهدف فيضاف إليها ويحذف منها. ولذلك فإن نقلها في حد ذاته إلى بيئات أخرى لا يحقق نتيجة ما، لأنها كالبذر الغريب، لا ينبت في غير تربته، ولقد كان المفكرون المسلمون على يقظة تامة إزاء هذا الملحظ الدقيق.

الديمقراطية والماركسية في أفق الإسلام:

ولقد كان لطرح المذهبين: الديمقراطيين والماركسيين في أفق الفكر الإسلامي، أبعاد الأثر في الاضطرابات التي أصابت المجتمع الإسلامي خلال القرن الماضي؟، فقد اقتسم المذهبان مؤامرة الهدم. فاحتضنت الماركسية هدم الدين والعقائد والتشكيك في القيم الإنسانية والنفسية والمعنوية.

واحتضنت الديمقراطية هدم الأخلاق ونشر الإباحية والتحلل وتوجيه السلوك توجيهاً يعلي شأن الغريزة وانطلاق العاطفة والشهوات والأهواء.

وقد تبين أن جميع أنظمة الغرب، لليهودية العالمية أصعب في وضعها أو في احتوائها أو تعديلها وتفسيرها ونشرها. وقد خضعت إما لمصلحة أصحاب رءوس الأموال، وإما لمصلحة طائفة أخرى من أهل النفوذ والسلطان. والنظام اليهودي، قائم على تبادل المنفعة، والقانون عندهم هو الذي يتمشى مع القانون ولا تعاقب عليه المحاكم. أما النظام الإسلامي فهو قائم على مبدأ "الإيثار المتقابل".

وقد تبين للفكر الإسلامي أن المذهبية الفردي والماركسي يتقاربان في عديد من وجهات النظر، بل إنهما يقومان فعلاً على مفهوم التفسير المادي للتاريخ الذي أوشك أن يكون أساساً للرأسمالية والماركسية معاً وإن كان الغرب لا يعتمدها وحدها في تفسير الوقائع ويضيف إليها التحليل النفسي الفرويدي (أي ماركس وفرويد معاً).

وقد ظهرت نزعات العنصرية تحت اسم القوميات، كمقدمة لظهور العنصرية اليهودية، وكانت اليهودية العالمية تحمل لواء الرأسمالية والاشتراكية معاً، وهي التي خلقت الصراعات والمعارك بين الأمم تحت هذا اللواء أو ذاك، وهي التي حملت النظرية المادية في الغرب والنظرية الإشراقية في الشرق، ومن وراء الهيزم والبوذيين في نفس الوقت، ودعوات العلمانية والبيوصوفية جميعاً.

وهي التي قامت من وراء الروحية الحديثة التي تدعو إلى ظهور إله جديد اسمه "سلفيريش" ومن وراء العقلانية التي تنكر كل ما وراء الحس، وهي التي دعت إلى أن الجنس عملية بيولوجية لا علاقة لها بالأخلاق، وأن الدين شخصي لا علاقة له بواقع الحياة، في محاولة لهدم الأسرة والأخلاق، وأن القول بأنه لا علاقة بين اللباس والأخلاق، أو أن المجرم مريض، وليس مذنباً، أو السخرية بعفاف المرأة والبركة في محاولة لدفع البشرية كلها إلى الوثنية والإباحية.

وهكذا يطغي الفكر البشري في هذا العصر مكتسحاً مفاهيم الخلق والدين والرحمة والكرامة الإنسانية ولم تعد هناك قوة قادرة على مواجهته وصد موجته غير الإسلام: دين الله الحق الباقي، على حمل رسالة التوحيد الخالص إلى العالمين.

إثارة الشبهات حول الإسلام:

ولقد حاولت قوى التغريب والغزو الفكري إثارة الشبهات حول الفكر الإسلامي وانتقاصه بدعاوي عدة: منها... أولاً: وصف الفكر الإسلامي بالذرية (أي بالتجزئة والانفصال).

وهذا خطأ محض، لأن الإسلام إنما يقوم أساساً على التكامل وعلى التقاء العناصر المختلفة في كل موحد وهو في هذا يختلف عن الفكر الغربي القائم على الانشطارية أساساً وعلى الفصل بين الدين والدولة، بين الدين والآخرة، والذي يعلي من شأن المادية.

وقد استمد شبهة الذرية من إنتاج مرحلة الضعف والتخلف، حين علت نزعة جبرية الصوفية ومن قبلها علت نزعة عقلانية الاعتزال، وكلاهما لا يمثل السلام، وبحكم الإسلام بأحدهما وإنما يحاكم لمفهومه الأصيل في عصر قوته وهو المفهوم الجامع الذي يقوم على أساس ترابط القيم والعناصر، وربما ارتبطت صفة الذرية بالعقل حين يعجز عن النظرة الكلية، التي تلمس الأبعاد الكاملة ولكنها في الواقع تتعارض مع مفهوم الفكر الإسلامي المستمد من جوهر الإسلام والقائم على التكامل والسطية.

ثانياً: القول بأن الفكر الإسلامي فكر تجريدي..

وهذا خطأ محض، وأمامنا ثمرات الفقه والتشريع والعلوم كلها تكذب هذه النظرية فإن الأصول كلها ترينا واقعية الفكر الإسلامي، وكيف أنه يتناول كل حادث يقع في حينه، ثم يتناوله بالبحث ويضع له الحلول، بل إن الفكر الإسلامي أكثر إغلاً في الواقعية من الفكر الغربي حيث يتناول الفقه مفردات الحياة اليومية ولا يقتصر على مسائل العبادات كما هو في بعض الأديان.

ثالثاً: وصفه بالضعف وأنه مثل التولستوية أو الغاندية ذات طابع الاستسلام، ولا ريب أن الإسلام بعيد عن طابع هذه الدعوة التي تقوم

على القضاء على مفهوم الجهاد الإسلامي وإنما يقوم الإسلام على القوة والرحمة معاً، كل في موضعه، ودعاة هذا المذهب يحاولون تصوير الإسلام معهم، أو هم يريدونه هكذا، وهم بذلك ينكرون جانباً هاماً من جوانبه فالإسلام يقوم على السلام والتسامح في نفس الوقت الذي يقوم فيه على المقاومة والقوة إذا انتهكت أرضه أو قيمه. رابعاً: خطأ القول بديمقراطية الإسلام أو اشتراكية الإسلام، فالإسلام ليس منهجاً خاضعاً للأيدولوجيات البشرية وليس مبرراً لأوضاع المجتمعات العالمية المنحرفة الفاسدة، وقد تلتقي بعض الخيوط هنا وهناك مع العدل الاجتماعي الإسلامي أو الشورى الإسلامية، ولكن يبقى للإسلام منهجه الكامل الجامع الرباني المصدر، الإنساني الوجهة، الذي يستطيع أن يعايش الأمم والحضارات والعصور إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، دون أن يعتوره نقص أو يحتاج إلى إضافة.

الحسم والفصل:

وبعد. فيجب أن يكون موقفنا من الفكر الغربي أو (الفكر البشري بعامة) حاسماً فاصلاً، وقد آن الأوان أن تبدأ ورحلة المواجهة الفاصلة حتى يعرف كل دارس للفكر الغربي مدى صلته بالفكر الإسلامي أو بعده عنه ومدى سلامته أو عجزه، ومدى صلاحيته أو فساده، ونعجب أن نقرأ في بعض المجلات العربية الإسلامية دفاعاً عن الفكر البشري الوثني المادي.

ولقد بدأ مشرق القرن الخامس عشر "عصر المواجهة" أو عصر الرشد الفكري، وأمامنا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين".

ولا ريب أن الغرب يخاف نهضة العالم الإسلامي من خلال الإسلام، ذلك أن الإسلام ليس مجرد نظام من العقائد والعبادات ولكنه منهج حياة ونظام مجتمع ومدنية كاملة.

ولما كان الفكر الإسلامي الأصيل (فكر أهل السنة والجماعة) لم يستسلم طوال أربعة عشر قرناً أمام الفكر الوافد الغريب فإنه لن يستسلم في هذا العصر وقد أعلن وجهة نظره واضحة في مختلف القضايا، وكشف زيف الدعوات الهدامة والأيدولوجيات الوافدة، وقد ظل دوماً وجيلاً بعد جيل يواجه هذه النظريات وبدلي برأيه فيها، لا يتوقف عن المعارضة ولا يتقبل كل شيء كما هو بل يرفض قبول كل ما لا يتفق مع أسسه وأصوله مع سماحته المعهودة في القبول والرفض.

عزة المسلم بالله واعتزازه بإسلامه:

يقول ستوك هروجينه: لا أعتقد أن الإسلام يسقط أمام النصرانية لأن المسلم محتاط الاحتياط لمقاومة النفوذ الأجنبي فهو يرى أن النصرانية شيء مضى ويرى تدينه بها خطوة إلى الوراء.

ويقول ليفرد كانتول سميث: ما من دين استطاع أن يوحى إلى المتدين به شعوراً بالعزة كالشعور الذي يخامر المسلم. إن الغربي لا يفهم الإسلام حق الفهم إلا إذا أدرك أنه "أسلوب حياة" تصطبغ به معيشة المسلم ظاهراً وباطناً وليس مجرد أفكار وعقائد يناقشها بتفكيره.

ويقول بارتلمي سان هيلر: أن الإسلام قد أحدث رقياً عظيماً جداً، فقد أطلق العقل الإنساني من قيوده التي كانت تأسره حول المعابد، وبين أيدي الكهنة فارتفع إلى الأولى واضطر العالم أن يرجع إلى نفسه وأن يبحث عن مستوى الاعتقاد بحياة وراء هذه الحياة وأن تحريم الإسلام للصور في المساجد قد خلص الفكر الإسلامي من وثنية القرون الأولى.. والعودة إلى خالقه".

وهكذا شهد علماء الغرب بأصالة الإسلام وفساد الفكر البشري ولكن القوى التي تستهدف السيطرة على العالم بعد تدميره أخلاقياً هي التي تعمل على طرح الفلسفات والوثنيات والمذاهب الهدامة والمادية في أفق الفكر الإسلامي باعتبار الإسلام هو العقبة الوحيدة والصخرة الكبرى أمام تلك المؤامرة الخطيرة. وهذا كله إجمال له تفصيل.